نصوص مختارة لسعيد عقل

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

[من قصيدة "فخر الدين" بقلم سعيد عقل]

بَسَمَ الدهرُ للشريد، وشاد العَرش، ظمآن، للأمير الصَغير
أُفقُ لُبنانَ، ضيقٌ ، وأمَانيه رِحابٌ مدى شرود الضميرِ.
هزّ فخرَ الدينِ انقباضُ حدودٍ، فرآها على شفا المَعمورِ،
فاستثار الأبطالَ يمضون للمجدِ، غضابًا ، ولامتشاق البدورِ.
سأل فيهم شاطي طرابلسٍ، وانشقّ، تيهًا، عن أنجم في مسيرٍ،
وتداعى عرشُ ابنِ سيفا إلى الترابِ، وخلّى الصدى بصُمّ الصخورِ،
فاذا يُنصِتُ البنون إلى الموجِ، يحسّونها قَنًا في الهدير.
وتنادوا من الشمالِ إلى زحلة، يسترفدونها في الكرورِ،
فيَهبّ الأبطال منها، ولا حدّ لوثب الزحليّ، يوم الظهورِ.
دان مجد الفُرَيخ، دان شفا الأردنِّ، في وثبة، ونَفْخة صورِ.
عضبةٌ من فوارسٍ حملوا البيض لقبرِ المسيح، حملَ النذورِ،
قيل: حجٌّ! وقيل : شوقُ سيوفٍ حدُّها، في الطموح، حدُّ النورِ!

.....

كاد وجهُ المير يَحْجب من مجدٍ عريق، على السهى منشورِ
كاد لُبنان يلتقي "العاليَ البابَ" بزندٍ سمحِ الفتول، قديرِ!
فتلوّت آستانةٌ: روعة الواجف هزّته غَصّةُ المقهورِ.
حلمت بالشواظ يمطر لبنان، وبالكرّ في العَديد الوفيرِ،
فاذا البرّ من غبار عباب، وإذا البحر من دخان حرورِ،
من عدى بكّر العتاد، تكاد الأرضُ ترنو إليهم بنفورِ.

لم يرعه التقاؤهم، وعلى الكَفّ فؤادٌ له حبيبُ الكرورِ،
راعه حُلمه تحطِّمُه الأقدار، طفلًا في هدهدات السَرِير،
فامّحى عن عداته، يكظم الأنْفاس خوفًا على الفَضاء الكبيرِ.

.....

داس في أرْضِهِ الأميرُ، فرَاح الجبل الميتُ في ثياب النسورِ،
وسرت رعشةٌ بلُبنان هزّت من ذرى أرزه إلى صخر صور:
أُمّة تستردّ مجدًا سليبًا، وأميرٌ يلهو مع المقدورِ.
يا حجارًا خوافت اللون في لُبنان، قِصّي كتابَ عهدٍ نضيرِ!
قِلَعًا كنتِ، ضاحكاتٍ من النجمِ، حسانًا، ممرّدات الخصور،
أنتِ تيرون! أنتِ عجلون! أنت المرقب السمح ماطرًا بالسعيرِ!
أنا ما دستُ مرّةً حجرًا منك، ولم أنتفض لذكرى الأميرِ!
حدّثيّ! حدّثي! ففي لونك الناحل أطيافُ جَيشنا المنصورِ!

.....

حملة اليوم، لو تكون للُبنان، لأودى بعزّة المعمورِ!
من رجالٍ في سرحة الفكر عدًّا، وسفينٍ في منتهى التقديرِ.
فاللهيبُ، اللهيبُ يمطر لُبنان، ويرفض بالردى والدثورِ،
وحوالي الأمير من كاظمٍ، قسرًا ، ومِن حاسدٍ أتيّ الشرورِ،
أعْيُنٌ يخنق السنى لفتة منها، فتغضي على مرادٍ ضريرِ،
ما أحسَّت بالترك يولونها القوّة، إلّا تفجّرت عن قبورِ.
العدى في رجاله، والعدى الترك بحور إليه إثر بحورِ،
يلتقيهم لُبنان بالعصبة البسّل يمضون للطعان الأخيرِ،
فيموتون عن نفوس كبارٍ، ويَنامون ملء طرف قريرِ.
قلعةٌ إثر قلعةٍ تُسَلّم الأبراج، إلّا تيرون، أخت النسورِ،
معقل الحُلم لم تشأ أن تداعى، هُزُءًا بالزمان والمقدورِ،
لم يدعها الأمير تسقط، لولا السمُّ في مائها الزلال النميرِ،
فرعاها بطرفه، ورعته، في وَداع أدمى غناء الطيورِ،

ومضى يسحبُ القيود بآستانة، مخضوبةً بحُلم كبيرٍ!

يا اندفاع الأمواج في شاطىء البوسفور، رِفقًا بذكريات الأميرِ!

سعيد عقل،

مجلّة المشرق، "فخر الدين بقلم سعيد عقل"، السنة ٣٣، بيروت، آذار ١٩٣٥، ص ٥٢٣-٥٢٧.

###

قدموس

لبنان وطنٌ للحقيقة.

هكذا شاء أنْ يكون، هكذا فليُعلن، عهدَ تضخّ خريطة العالم بانهماكَين من أجلّ أحداث التاريخ: اكتناه العقل، والتوغّل في ماهيّة المادّة.

والواقعُ أنَّ التاريخ- وهو الذاكرة العجيبة التي لا تأبَه للتوافه- يُرَجَّح أن يَمسح من باله كلّ ما انتاب القرنَين الأخيرين من ثوراتٍ وحروبٍ وانقلاباتٍ، فلا يبقي من نتاجهما إلّا على ذينك الحدثَين اللذين يحصلان في خمسين سنة حولنا.

وإذا كان نشاط البشر- أيْ تحقيق الإنسان ذاته- إنّما يدور على الله، والنفس، والمادّة، وكان العقل رابعهم (وبالحصر: فرع الثانية)، يكون الآلة المستخدَمة في ذلك النشاط، فأيمِنْ بإعلان لبنان ملكوتًا للحقيقة آخر، في النصف القرن المبارك الذي يُرسَل النور فيه على العقل والمادّة ، على اثنتين من ركائز الوجود الأربع.

ما لبنان؟ متى كان ولماذا؟ وفِيمَ يُعلن؟

مُرافقُ وجودٍ لتجسيد الوعي، راح يكون منذ ما راح العقل يعقل، وقد استحال عليه، لفيزيقيّته ولميتافيزيقيّته، أن لا يستمرّ يحتكّ بالتقدّم. وهو يُعلَن، لا لأنّه اليوم ضرورة أكثر ممّا كان في كلّ الأزمنة ، بل لأنّ وعيَ الذين يعونه اكتمل. وإنّما تُعلِن الحقيقة نفسها فورَ صيرورتها الحقيقة.

جماعةٌ من الناس تحيا على الساحل الشرقيّ من المتوسّط ضمن إطارٍ فذّ لا هو تخومٌ إقليميّة، ولا نَسَبٌ عِرْقيّ، ولا سَوِيٌّ نُطقيّ، ولا وَحدةُ أيّ تاريخ كان، إنّما هو عجيج كدّ في السير صُعُدًا من غباوة المادّة إلى وعي العقل. ما أُمّتنا بأمّة أخذًا بما تعارفت عليه السياسة منذ أن راحت تنحدر من أوج أشرف علم — علم تَعَهّد الأناسي- إلى " إنجاب" المكيافليّين". حتّى إذا كان المقصود بالأمّة جماعةً من الناس قادرة، نيّرة، مُحبّة، فنجهر حينئذٍ بأنّه إن لم يَكُنْها لبنان بمطلق معنى، فقد راح أكثر من كلّ بلد آخر يتّجه هذا الاتّجاه.

أوّل ما يطالع المتعرّف بنا أنّنا شعبٌ نترصّنُ، والمسكونةُ رعونة، نرصف ذواتنا بالأسى، والناسُ عويل، نتطلّع إلى الفكر، والشعوب تحمّسٌ لتاريخ وتشبثٌ بأرضٍ واجتماعٌ على مادّة، نكبر على الجُلّى، والأمَمُ اهتياجٌ وسَلّ سيفٍ وحرب، نغترب في الفوق، والأخرون في الأمام، نتحفّظُ في الوثبة قبل استكمالِ الهداية، والتقدّم، على الإجمال جمعٌ من جزئيّ المعرفة. قوى كلّها قوى صكّت الإنسانَ على هذا الساحل أكثفَ ما أمكن انسانيّةً، وهدرت في وَعْيِهِ أنّهُ قَشعريرةٌ في جسم الشرق، وكلمةُ حقّ إلى العالم.

لماذا نحنُ هذا؟ بأيّ دربة تَمَرّسنا على الزمن؟ أيّ القيَمِ يرِثُها اللبنانيّ منذ ما تنفتح عيناه على بادرة الأُمّ والأب؟

وراء الفرد، عندنا، أربعٌ من البُؤرِ العقليّة التي كان نشاطها، على الزمن، هو الحضارة. أربعُ بؤر آيتها، لا في أنّها ابتدعت وحسب، بل في أنّها راحت أيضًا تنفتح على زميلاتها الأُخَر في العالم، أخّاذةً منها، خلّاقة لها، وصّالة بين متقاطعها، فإذا هي قسم خطير من التُراث العقليّ الواحد الذي يرصف الخليقة المستعدّة: إنسانًا.

ما هذه البؤر الأربع؟ وما آيتها؟

وقفت البشريّة مكتوفة اليدين عند إقليم يُعطي، ولكنْ بمقدار، ومغاورَ تَقِي من هجير وَقرّ، ولكن كلًّا في صوب، وخيراتٍ كلّ امرئ بحاجة إليّها جميعًا، ولكن كلّ مادّة من موادّها في جزيرة. كان القدر سيّد الإنسان.

ويبتدع مبتدعٌ آلةَ الحرث، يُرغم الأرض على عطاء فوق العطاء. ويوجد البناءَ بالحجر، كأنّما يجرّ المغاور، كلًّا من رأس جبل، بناصيتها، إلى حيث تتجمّع فتكوّن المدينة، فالمجتمع، فالحضارة. ويدفع إلى البحر بجذع أرز ينقل إلى جزر في بحر الشمال مصنوعات لُبنان، وإلى لُبنان قصديرَ بحر الشمال، فيجعل الأرض الغبيّة كأنّما تعقل في توزيع الخير. في ذلك اليوم أصبح الإنسان هو سيّد القدر.

وعرف الناس الذئب، وحسب، والحيّا الطلق، وحسب. فالمَحْسوس موضوع اشتغالات العقل لا يخضع لعقل العقل. ليس إذَن عقل.

ويمضي ماضٍ خطوةً في اكتناه الأشياء فيخلُص إلى الشراسة من ذئابٍ تسطو بِوَلَدٍ، ومن أوجهٍ وسيمةِ الطلعةِ إلى الجمال. في ذلك اليوم يجرّد، ويعود بوسعه أنْ يخلص من بضعة وعشرين حرفًا إلى الأُلوف من خواطر البال. ومن المضيّ في هذا الاتّجاه يكون للبشرية أن تحلم بفنّ وعلم وفكر.

تحدّى الإنسان القَدَر فكان السعي، واكتَنَه المحسوس فكان التجريد. وكان ذلك في صيدون. وعبد الأَوّلون آلهةً عدّة. فالحقيقة عندهم غير واحدة. لا حقيقة إذن.

أجل كان للبشريّة الطفلة أن تُتَمَّمَ بالوحدانيّة في مصر وفي بابل، وكان لأثينا أن توجس تناقصًا بين جلبة الأولمب والحقيقة الواحدة. لكنّ القدس هي التي حملت همّ الوحدانيّة.

وفي القدس، لاحت للأعين صفحةٌ أخرى دفعت بالعقل من العجب هي بحيث لم يكن يحلم بها في التفاتاته. صفحة سَكبت في الخليقة من تصرّف الخالق.

المجتمع كالقبيلة سواء بسواء. القدرة على البقاء بنسبة القدرة على البغض. والبغض لا يحبل إلّا ببغض، فالحرب محتومة أبدًا. حالةُ شاهدِ عجزٍ في الفكر، تتناقضُ والتقدّم الذي هو في طبيعة الإنسان.

ويرتفع صوتٌ يشرعُّ الحبَّ سنّةً في الناس، فترتجف من أسس علاقاتُ البشر بعضهم ببعض، ويضطرّون إلى استنباط قواعد للعيش جديدة غير غزو المرء جارَه، وغير اتّخاذ أرضه مدى حيويًّا. عندما يقول يسوع: " أحبّوا أعداءكم..."، تُبْلَغ المحجّةُ في تسوية العلائق بين الناس، وتكون الكَونَوِيّة. فمن الكَونَوِيّة أنّ ليس حلًّا لمعضلتك ما لا يراعي معضلة الآخرين، ولا حكمًا في قضيّتك ما لا يأبه لجميع القضايا.

ولم تكتفِ الصفحةُ النيّرَة بإطلاع الحقّ، بل تروح تكشفه للعقول المنشرِحة، فنعرف أنّ الحقّ قدرة، وأنّ الحقّ نور، وأنّ الحقّ محبّة. ونعرف أنّ القدرة لا تكون القدرة بدون نور ومحبّة، وهكذا النور بدون الآخرَين، وكذلك المحبّة. كان قد قيل: الحقُّ أحد. فزادت: والأحد ثالوث.

من الحبّ كانت الكونويّة، ومن تثليث الحقّ الأحد شُيِّأ كلّ شَيء. وكان ذلك النور في القدس. وراودت خواطرَ البشر، بين زمن وآخر، فِكَرٌ كبيرة، لكنّها كانت على الزمن تَهِنُ فتتلاشى. وعندما يُجعَل للحقّ جيدٌ يكفل بقاءَه في الناس، يلمس العقلُ لمسًا معنى هذه البداهة: كلّ كينونة لا تكون إلّا متى تجسّدت.

بلغ الفكرُ من ذاته حدّ الفعل، صار الفكر هو الفعل. وكان ذلك في أنطاكية.

وتَمّ حَبَلُ العقل بعلم سياسة الناس: نَظَرٌ في الأغارقة، وتجربة عند الرومان. وراح الشرق يتوق إلى يوم يتّصل بتلك التجربة الفذّة.

ويحكِّم حاكمٌ قلبَه في همّة حجازيّة قعساء حطّمت الوثن وهدت باسّم الله الأحد، وبالُهُ في بيئة شاميّة ربيبة التجربة الفذّة، فيدشّن الشرق عهده بسياسة الناس بأمثل معنًى عُرِّفت به. عندما يجعل معاوية الكبير دمشق قاعدة لَهُ تولد آلةُ حكم عجيبة إبداعُها أنّها عَرَفت مقادير التركيب، ويكون من تراثها الحُكمْيّ (الدمشقيّ حضارةً وتدبيرًا، الدمشقيّ دماغًا وقيادة) فتحٌ عريض دقّ في الثلاث القارّات بيارقَ راحت تظلّل المعرفة في حقبة من عمر العالم. عقلٌ توطَّنَ لهبَ الإيمان فمهر عالم العصور الوسطى برجل الحكم. وكان ذلك في دمشق.

صيدون، القدس، أنطاكية، دمشق، بُؤر عقليّة أربع لا تنكفيء على ذاتها بل تروح تتحاكّ والعقل العالميّ، تخصبه ويخصبها. فمن صيدون تمضي جاليةٌ إلى مصر تؤسّس أجمل أحياء منفيس، حيث تقوم حركة عقليّة تكفل تنشئة موسى بطل الوحدانيّة ، كما يمضي

فتح إلى بلاد اليونان يبني مدينة ثيبا، مرضعة أثينا. وإذا يشرق نجم روما النظام، ربيبة أثينا المنطق، تنفتح لهما اثنتان من مدننا الأربع: عبرَ طرسوس تفعل أثينا في أنطاكية، وعبرَ بيزنطية وبيروت تفعلُ روما في دمشق. ومع عصب دمشق تكون قُرْطُبَةُ الأندلس، التي ستغدو عاصمة العالم الفكريّة، بين عامي ثماني مئة وألف. وتكون أنطاكية قد انتقلت جملة إلى روما النظام تجعلها روما الروح. ومن هذه ومن تلك ومن أثينا تكون أوروبّة الحديثة التي لا ننفكّ في القرنيّن الأخيرين نتّصل بها عبر باريس، عاصمة العالم الروحيّة ومستودع الإرث العقليّ الواحد.

من صيدون إلى دمشق مَرًّا بالقدس، فأنطاكية، فتشابكاتها بعواصم العالم العقليّة، تراكَمَ إرثٌ قدير نيّر محبّ قد تكون غفلت عنه، في زمن من الأزمان، مدنُ الخير الأربع التي أطلعته، فتتركّت أنطاكية، وتبدّت دمشق وصيدون، وتصَهْيَنَت القدس، ولكنّ لُبنان ما انفكّ على الزمن يحتضن ذلك الإرث بحرص، موفِّرًا له المضيّ في اتّجاهه الذاتيّ الفذّ، مؤمّنًا له– لانفتاحه– لفتات وساعًا كالوجود صوب كلّ تقدّم في الوجود.

هذا هو الإرث الذي يكوّن لُبنان وذاتيّته وثراءه العقليّ، ويحدّه بأنّه " ما وراء" تخوم ونطق وعِرق ووحدة أيّ تاريخ كان.

إنّه لمن إبداع لنا ذاتيّ، ومن تفاعل بيننا وبين حوضنا المشرقيّ وحوضنا العالميّ، تصبح رسالةُ لُبنانَ في بَنِيهِ فعلَ تكثيف اللإنسانيّة في الإنسان، وفي المشرق فعل حُبّ وابداع، وفي العالم فعل فهم وإعطاء. فعلٌ متنوّع ولكنّه، على كلّ حال، فعلٌ، فعلٌ لا يُوقَف.

يتنازل لُبنان عن رعاية العقل وعلّة وجوده الوحيدة أنّه عقل، ولا يستجيز لنفسه أن يبغض، وأجمل ما في تراثه أنّه حبّ، ولا يقبل بأن ينكفىء على ذاته، واتّجاه فعله هو انفتاح على العالم وما فوق العالم.

ويستحيل أن تُستَغَلّ على لُبنان نورانيّته هذه وحبّه وانفتاحه، وهي جميعًا حقّ، والحقّ قدرة فوق كلّ قوّة.

سوف يكون لُبنان، بحكم إرثه، هديًا لكلّ مستهدٍ، ومدرسةَ حبّ لكلّ ابن حقّ ضاق به صِغَرُ الأرض.

سوف يكون البلدَ– الوحيد إذا اقتضى الأمر— الذي يأمن العقلُ فيه أن يحكم على أيّ إله، على أيّ إنسان ولأيّ إنسان، على أيّ عمل ولأيّ عمل، وفي كلّ مسكن، وفي كلّ شارع، وفي كلّ ظرف.

سوف يكون لَهُ من تعدّد الشيَع والطوائف فيه نعمةُ تمرّسِه برحابة الصدر، وشرفُ السبق إلى التأليف بين الأشياء. به يعلم اليهود كيف الإقلاع عن عنصريّة ، ومنه تتلقّن آسية، لا كيف استخدام الآلة، بل كيف المساهمة في العلم الذي أوجد الآلة.

سوف يكون له، من ذراعيه المفتوحتين لا تضيقان، ركونٌ إلى مفكّري الغرب، لا ليأخذ عنهم كيف يقاتل الغرب، بل ليضيف إلى عقدهم قلبًا كبيرًا، فريد العمل في التاريخ، يقتلع البغض من الغرب. من هنا مَرُّهُ مَرَّ الكرام بخطر عليه، موهوم، مدسوس على نبالة العدل والنور في عالم الغد. ومهما يَكُنْ من أمرٍ فهو المُوقِن بأنّه باقٍ، لا بمشيئةٍ من آخرين، بل لأنّه يريد أن يبقى. وحقّه بالبقاء هو

فعله أمس واعتزامه للغد. فعلٌ واعتزامٌ يبرهنان على أنّ القوميّة ليست إثرة في ذات، وعصبيّة على جار، وبغضًا لغريب، بل مدماك متواضع في البناء الواحد.

من تراثٍ قدير نيّر محبّ، عمّرنا على أبواب آسية، في هذا الجزء المتوغّل من أوروبّة التراثيّة، وطنًا للحقيقة. وجهرنا، نحن بَنِيه، في وجه الغرب– ذاك المزيج من نور وحرب– أنّ لنا إليه رسالة مهدّئةً من رعونته، مخصبة من نشاطه، مسدّدة من بصره إلى ما وراء النفع، رسالةً هَدَتنا إليها ستّة آلاف سنة من الصبر، والفكر، وامتهان المادّة، والكفران بالذات، والتطلّع إلى فوق، والتريّث بالبادرة قبل وعي لكلّ، رسالةً فذّة في العالم تخوّلنا لَبْنَنَة العالم.

نيسان ١٩٤٤

سعيد عقل،

من كتاب **قدموس**، طبعة ثالثة، بيروت، دار الكتب ، ١٩٦١

###

عَظِيمُ العُظَمَاء

في أوائل القرن الثّامن، كان القاطنون في حيٍّ بعينه من بعلبكَّ، ممَّن تقوم بيوتُهم حول السَّاحة– وهي بهذا الاسم، وإن لم تكن تَزيد على تِسْع قَصَبات في ثمانٍ– يُبكِّرون، صباحًا، إلى احتلال الشَّبابيك.

وكان أُناسٌ من الأحياء الأخرى يستضيفونهم لا لِشَيء إلّا ليستمتعوا معهم بالرُّؤية.

وعند بُزوغ الشَّمس تمامًا، أو بُعَيدَه بقليل، تأخذ الرُّؤوس تتحرَّك خلف الشَّعْرِيَّات.

إنّهم الحضورُ اكْتَملوا.

وعمَّا قريب سيَصِل المُنتظَر.

وتكون العجائز قد كَنَسْنَ السَّاحةَ من ورقةٍ حَملتها الرِّيح أو من فُتات خُبز وقِشرة بَصَل تركهما مَكاريٌّ تَعَشَّى تحت حِنْيَة. إذ يَنْبغي أن يبقى المكانُ نظيفًا لكي لا تَقَعَ عَيْنا القادم على شيء يُكدِّر.

وما هي حتَّى ينفجرَ من أحد الأَزِقَّة بعضُ الصِّبْية، ويُلاقيهم ولد من هُنا، وآخرُ من هُناك.

وتهدأُ الجَلَبَة.

ويَرُوحون، الواحدُ تِلْوَ الآخر، يتوجَّهون إلى جهةٍ بالذَّات، وقد تَرَصَّنوا وخَفَتَتِ الأصوات.

أمَّا الرُّؤوس الَّتي في الشَّبابيكِ خَلْفَ الشَّعْرِيَّات فتتكاثر.

ويُسمَعُ هَمْس:

- عَبْدُ الرَّحمنِ! وصل عَبْدُ الرَّحمنِ!!

إنَّه هو أيضًا وَلَدٌ. وَلَدٌ مِثْلُ هولاءِ، في الحاديةَ عَشْرةَ لا تَزِيد.

- تَلعبون؟ يقول لهم.

فَيَهتف واحد:

- لا، يا عبدَ الرَّحمن. اليومَ في حَيِّ الهياكل ميت. وعمَّا قريب سيَخرُجون بنعشه.

- ما هَمَّ يُجيب عبدُ الرَّحمنِ، آباؤنا يؤاسُون. أمَّا نحن فقد جئنا لِنَلْهوَ.

ها هو أَنيقُ الإشارة يُصفِّق فيُطيعون: يَقْسِمهم ثَلاثَ فِرَقٍ يَركض أمامَهم، يَبُثُّ بعضًا في زاوية وآخرين تحت شُرْفة، يَصفِر، يَعثُهم ، يَجيء بِهِمْ، وأخيرًا يُعلِن غلَبَة الغالِبِينَ. ويحاول بعضهمُ اعتراضًا، فيبتسم له هو، فيختنق الاعتراض.

كلُّ هذا بحركة مَلْمُومة: لا يَعنُف، لا يبالغ، لا يرفع صوتًا، وله ضَحْكَةٌ ولا أَوْقع، تُشجِّعُ أبدًا، وتقرِّب بين المتَخاصِمينَ.

- أسكُتُ إكرامًا لعبد الرَّحمنِ، يقول واحدٌ لِمُشاكِس نال منه.

ويَكُونون قد تَعبوا. فيقتعدون إفريزًا، وهو على رأسهم في الوسَط. ثمَّ متى شَرَعَ في الحديث يرُوح البَعيدُون يتركون الإفريز شيئًا فشيئًا حتَّى لَيُصبِحونَ بين يديه على الأرض في حَلقة رَحْبة.

- كان عليك أن تسكتَ، يا جِرْيس. إنَّ محمودًا مُحِقٌّ.

لقد ظَلَمْت.

فيسأله واحد:

- ما معنى" ظَلَمت"؟ كلمة أُخرى جديدة. من المُصْحَف ولا بُدَّ. لم نَصِلْ إلى كتاب الله.

- تمييزُ الظُّلم من العدل، يردُّ عبدُ الرَّحمنِ، يكونُ فِينا منذ الطُّفولة. كذلك تمييزُ القُبح من الجَمال. نحن اليومَ، كبار، بعضُنا في الثَّانيةَ عَشْرةَ.

ويسأله سائل:

- حقًّا قُلتَ، أمسِ، إنّه كان عليَّ أن لا أَضرِبَ عُمَر؟

كان عُمَرُ قد ضَرَبني.

- إضرِبْه، يردُّ عبد الرَّحمنِ، حَقُّك هذا. إنّه يُسمَّى عَدْلًا. ولكن بإمكانك وقوفُ المَوْقِفِ الأجملِ. أنظرْ إلى هذه الأعمدة. أتظنُّ أنَّ في الدُّنيا أروعَ؟

فيتطلَّعون! فإذا الأعينُ مُسَمَّرة على هيكل جوپتير، وقد راحت شَمسُ الصَّباح تُواجِه منه جانبًا، وتُبقي آخر في الظِّلّ، فيُبدي بَهاءً غَيْرَ مُعتاد.

فيكمل عبد الرَّحمن:

- بَلَى أنْ تَسكُتَ على المُسيء أَحْسَنُ. معاقبته عدلٌ وهذا محبَّة. والمحَبَّة فوقَ العدل.

فَتَمُوج الرُّؤوس خلف الشَّعْرِيات استِحسانًا ، وتُسمَعُ كَلِماتُ إعجاب، فيُهمْهِسُ الكلامَ واحد:

- بالله عليكم لا تَرْفَعوا الصَّوت. إنْ درى بنا أخَذَهم ومضى.

ويساله صَبِيٌّ أكبر منه:

- وَعَدْتَنا منذ أُسبوعينِ بِنَقْدِ الحكاية الَّتي قَصَّها أبو صَلاح.
- صحيحٌ صحيحٌ، يقول عبدُ الرَّحمن، لقد أعجبني أبو صَلاح. لكنَّه جعل الشَّيخَ زينَ العابدين، بعد أن انتصر على أعدائه، يقطع شجرهم اثّارًا لابنه القتيل. ما ذَنْبُ الشَّجر؟ كانت واحدته تُظلِّلُ ابنه، وهو في قَيْدِ الحياة. وزينُ العابدين؟ بَلَى كان بطلًا. ضَرَباتُ سيفه تأخذ بالألْباب. إلَّا أنَّه رَضِيَ بأن يواصل جُندُه تَسْديدَ السِّهام إلى عَدُوِّه بعد أن ادَّرَعَ عدُّوه بأولاده. هذا ليس في الإنسان.

فاعترض أحد الصِّبية:

- ما تقول، يا عبد الرَّحمنِ؟ لو أنَّه كَفَّ عنهم لكانت النَّجْدة وصلت إليهم في حينها، وغُلِب زينُ العابدين.
- فليُغلَبْ، رَدَّ عبدُ الرَّحمن. على المرء، أحيانًا، أن يُؤثر الانكسار. رُبَّ انكسارٍ أجمل مِن ظَفَر.

فَتَهْتِفُ امرأةٌ من أحد الشَّبابيك:

- سَلِمَ فَمُك.

فيتطلَّع، فإذا عشراتُ الرُّؤوس قد أَطلَّتْ، فيَنهض، ويغمِزُ الصَّبيْة، وينطلقون.

ذاتَ يَوم من عام ٧٢١، وكان قد كَبِرَ سنتين، جمعهم في السَّاحة وراح يُودّعهم:

- اللَّيلة، رأيتُ في مَنامي رؤيا جميلة. قال تركت بعلبكَّ. وقال أنا في دمشق أخطب في المَسجِد. ثمَّ أنا، مرَّة أخرى، في لبنان، في بيروت، يَجيئني أُناس يَستَفْتُونني، من الشَّام، من المَغْرِب، من الهِنْد، من بلاد تدعى الأندلس.

اسمٌ جديد على الدُّنيا. أضغاثُ أحلام... أَمَا تَظنُّون؟ وما هَمَّ. فلنُكمِل. قال إنَّني أحببتُ أهلَ بيروت وأهلَ الجبل.

ومن أجْلِهم رفعتُ الصَّوت على الظُّلم بِوَجه أكبرِ مَلِكٍ في الدُّنيا لأنَّ وُلاتَه جاروا على لُبنان.

وسَكَتَ الصِّبْية. وكانت الدُّموع تَطْفِر من الأَعْيُن.

فأكمل عبد الرَّحمن:

- إنَّه حُلْم... حُلْمٌ ليس إلَّا... على أيِّ حال أنا ذاهب، غدًا، إلى دمشق . وقد أموت في سِواها من بلاد الله، لكنَّني أُريدكم إلى شيء: إنْ صار واحدُكم مُوسِرًا فلْيتصدَّقْ على رُفاتي ولينقلْه إلى لبنان .

قالها مُغلِّفًا حُزْنه بالضَّحِك.

في اليومِ التَّالي كانت دمشق بأَسْرِها قد خرجت إلى الطُّرُقات تَستقبل ولدًا غيرَ عادِيّ يقال له " عبد الرَّحمنِ الأَوْزاعي".

هكذا قَصَّ قِصَّة الإمام العظيم، في حداثته، راهبٌ من غزير كان يَزُورُ مع تلامذته مَسْجِدًا في ظاهر بيروت راحت أرضُنا، بسببه، تعتزُّ بأَنَّها تَضُمُّ رُفاتًا فريدًا، رُفاتَ من قِيل فيه: "كان الإنسانَ الكاملَ، أعلمَ عُلَماءِ عصرِه، وأشرفَ شُرَفاءِ عصرِه".

سعيد عقل،

"عَظِيمُ العُظَمَاء" في **لبنان إن حكى**، طبعة ثالثة، زوق مصبح، جامعة سيّدة اللويزة، ٢٠١٣، ص ٨٩-٩٥.

###